بين الشرق والغرب

رد على رد

للأستاذ فليكس فارس

كتبت مقالى فى العددين (٢٥٧ و ٢٥٨) من الرسالة تحت عنوان الشرق والغرب فأوردت فيه بعض مباحث دارت بينى وبين الدكتور اسماعيل أدهم ، فإذا به يأتى فى عددى (٢٥٩ و ٢٦٠) بما يعتقده مؤيداً لرأيه ، وهو المبدأ الذى حاول تعزيزه فى مناظرة (٢٠ مارس سنة ١٩٣٨)[1] يثبت أن من الخير لمصر أن تأخذ بالحضارة الغربية . وقد أحسن الدكتور أدهم بإيراده ملخص أقواله إذ عرض بذلك على المفكرين ما يتم البحث بإيضاح النظرية الإيجابية فى قضية تشغل كل محب لأوطانه فى هذا الشرق العربى الذى آن له أن يعين اتجاهه ويتطلع إلى مصير أبنائه وأحفاده

هذا ولا بد لى فى هذا المقام أن أكرر على قراء الرسالة ما قلته لمن غص بهم رحب قاعة المناظرة حين دافع الدكتور عن نظريته، ولمحت شيئاً من الأشياء لموقفه على وجوه الشبيبة العربية . قلت : إن صديقى الدكتور أدهم فيلسوف غربى لا يسلم تفكيره فى الاجتماع من نزعات فطرته، كما لا يسلم تفكيرنا نحن من نزعات فطرتنا. فالمسألة مسألة اجتماعية يدور بها الشئ الكثير من حوافز الذوق الموروث ، لذلك أرى موقف صديقى مهاجماً أحرج من موقفى مجارياً ، فأشكره على صراحته معتقداً بحسن نيته وبأن حبه للشرق ولمصر هو ما يحفزه إلى محاولة إقناعنا بأفضلية الحضارة الغربية ؛ ليس عدواً من ناقشك ودعاك إلى الأخذ بما يعتقده حقاً لأنه يتمنى لك ما ارتضاه لنفسه

والآن لأرسلن نظرة عجلى فى ما كتبه الدكتور أدهم فى الرسالة متناولا ما يستوقفنى فيه مما لم أتناوله فى مقالى السابق متجنباً التكرار متوخياً حصر الموضوع فى دائرة محدودة نصل منها إلى نتيجة ، لأن اقتحام الجدل من أجل الجدل لا يؤدى فى الغالب إلا إلى الانتقال لفروع القضية بالتغاضى عن أصلها

١ — إن مناظرى يعترف بأن لمصر ثقافة تقليدية لا يمكنها أن تخرج عنها ما لم يهتز المجتمع فى صميمه ، ولكنه يعود بهذه الثقافة إلى أصل فرعونى راسخ سواء فى طرق المعيشة أو فى الدين؛ ودليله على استقرار مصر على حضارة فرعونية جلباب الريفى الأزرق وطرق الرى ، وبرهانه على استقرارها على دين الفراعنة تطرق تقاليده إلى الدين الاسلامى، وبتعبير أصح إلى حياة المسلمين

أما أن يعد المناظر طريقة استغلال الأرض فطرة فذلك مما لا يوافقه أحد عليه، لأن المسألة هنا تتعلق بتطور فى أساليب الصناعة ، ولا شأن للفطرة فيها . ولو كان الأمر كما يقول المناظر لكان كل مرتد لغير القميص الأزرق، وكل حارث بآلة حديثة، وكل مستبدل « شادوفاً » «بطلمبة» ، فاقداً للفرعونية التى يريد المناظر بعثها أساساً لحضارة مصر ...

أما أن تكون التقاليد التى احتفظ بها السكان من الحضارة المنقرضة دليلاً على بقاء الدين فرعونياً فى مصر فذلك ما لا يقره عليه أحد ، لأن ما تبقى من العادات يعد بدعاً لا يزال الدين يعمل على اقتلاعها من المجتمع لخيره وسلامة إيمانه

إن مصر لن تكون فرعونية فى القرن العشرين إلا إذا تراجع الزمان الفهقرى طاوياً معه كلمة الله التى جعلت قوم فرعون حديثاً فى تاريخ الشعوب

٢ — إن مناظرى يستبعد سائر البلاد العربية عن البحث مدعياً أن ثقافة مصر مستقلة تجاه الحضارة العربية، لأن لها طابعاً خاصاً ، ولأن لغتها العربية استمدت من الثقافة الفرعونية قدرتها على صوغ المعانى بما يتكافأ ومحيط مصر ، فاللغة العامية فى هذا الوادى إنما هى — بحسب رأى الدكتور أدهم — فرعونية آخذة بأسباب التعرب ...

أما أن تكون مصر ذات ثقافة خاصة تتميز بها عن سائر

---

(١) على ذكر هذه المحاضرة لا بد لى من أن أصحح ما ورد على هامش الرد من أن آراء الحاضرين فى المناظرة انقسمت متساوية على الايجاب والسلب فى الموضوع ، لأن ما أعلمه ويشهد به الدكتور أدهم نفسه هو أن الوجه الايجابى لم ينل إلا ثلاثة أو خمسة أصوات فى حين أن الحشد كله كان فى جانب النظرية الشرقية التى أيدتها

الأقطار العربية فذلك ما ننكره على المناظر ، لأن لشعوب سائر الأقطار العربية كلها جدوداً عاصروا الفرعونيين وتركوا في التاريخ ذكرى حضارات لم يبق منها سوى أعمدة محطمة وهياكل متداعية

إن في كل من الأقطار العربية من الميزات الاقليمية ما لا ينكره أحد؛ وقد تجد مثل هذه الميزات في أحياء مدينة واحدة، ولكنها أضعف من أن تسلخ هذه الشعوب عن ثقافة عامة شاملة لها في اللغة والموسيقى ونظام الأسرة وروح التشريع . وهذه الميزات العامة هي ما تقوم الحضارة الأدبية عليه في كل الأمم

أما أن تكون اللغة العامية في مصر عبارة عن لغة فرعونية في أصلها فذلك مما نقف عنده متسائلين عما إذا كان الدكتور أدهم لا يقصد هزلاً به . . .

ليست اللغة العامية في مصر إلا كسائر اللغات العامية في الأقطار العربية، لغة أفسدتها عصور الانحطاط ، فانك لو أغضيت عن اللهجات في كيفية الالقاء، وهذا مما يصعب توحيده في أقاليم أية أمة، فانك لا تجد إلا كلمات معدودات يختلف النطق بها بين مصر وسوريا وبغداد مثلاً؛ غير أنها كلمات عربية شوهها الاختصار، ولكنه استبق على أصلها . فأين « دلوقتي » « وإزيك » من لغة الفراعنة ؟ وأين «شوبدك» من لغة أبناء فينيقيه ؟

٣ — أراد مناظري أن يجعل العلم والثقافة شيئاً واحداً ، فهو يقول بانبثاق الثقافة من العلوم الأصلية، ونحن لا نعلم ما هي العلاقة بين علم طبقات الأرض مثلاً والمبادئ الأدبية التي يقوم المجتمع عليها . وقد أوردنا في مقالنا السابق ما يغنينا عن التكرار في هذا الموضوع

يرى المناظر أن اليابان أصبحت عالة على أوربا لأنها أخذت العلم الوضعي عنها ولم تأخذ بحضارتها في آن واحد . فحضرته يميز إذن بين العلم والحضارة ... في حين أنه يقول بصدور الحضارة عن العلم

ثم هو يقول إن أوربا تعمل بحضارتها للتحرر من استعباد الآلة . ونحن نرى أن أوربا لن تخلص من هذا الاستعباد إذا هي لم تخرج على مبادئ حضارتها

٤ — يعود المناظر إلى التمسك بقوله إن الشرق يقيم الحياة على أساس غيبي لتنظيم الصلات بين البشر ؛ ونحن لا ننكر على الشرق هذه الفضيلة، ونود لو اتخذها الغرب أساساً لحضارته؛ لأن كل تنظيم لعلاقات البشر في المجتمع لا يرسو على الايمان باستمرار الحياة بعد الموت ، لا يجد مرتكزاً له في غير مبدأ الحق للقوة سواء أكان ذلك بين الأفراد أم بين الأمم

٥ — نشكر للمناظر اعترافه بأن المنطق مشاع بين الأمم ، بعد أن كان في مناظرته ينكره على الشرق . ولعله يذكر كما يذكر من حضر المناظرة إصراره على القول بأن الاقليم والبيئة في الشرق يجنحان بأهله إلى الخيال دون التفكير والاستقراء مما دعانا إلى الرد عليه بقولنا :

٦ — إذن ، لماذا تدعونا إلى ما لا قبل لنا به ولا إمكان لاقتباسه ما لم نهجر أوطاننا ونذهب إلى الغرب نتوطن فيه أجيالا نستبدل بأدمغتنا الشرقية أدمغة غربية. إذا كان لا يسعنا أن نملك المنطق إلا بهذه التضحية فعلى المنطق السفاء ... غير أننا كنا عند ما أنشأنا حضارتنا على أرض هذا الشرق وتحت سمائه أسياد المنطق في العالم

أما وقد أعلن المناظر أخيراً اعتقاده بأن المنطق مشاع بين الأمم وأنه يضعف إذا أهمل ، فقد أصبحت دعوته للشرق للأخذ بمنطق الغرب دعوة لا مبرر لها ، بل قد أصبحت ولها معنى واحد وهو الاهابة بالشرق للنهوض والعمل على استعادة مجده بالرجوع إلى تفكيره وشعوره

٦ — يقول المناظر إن الفلسفة الاسلامية روحها يونانية ومنطقها يوناني ، لأن الفارابي وابن سينا وسواهما علقوا إرادة الخالق بقوانين الكون . ولا نعلم ماذا يقصد الدكتور بهذا . إن فلسفة المفكرين ليست إسلامية ولا مسيحية؛ إن هي إلا آراء في الخلق لا تمت إلى الدين بسبب . إن الايمان لا يقبل جعل الخالق أسيراً لما خلق . فان كان الله جل جلاله قد وضع لهذا الكون نظاماً أفيعجز عن تبديله حين يشاء ؟ إنها لفلسفة غريبة هذه الفلسفة التي تذهب متحرشة بإرادة المبدع قاصدة تحليلها لتعلم ما إذا كان بوسعه أن يحكم إرادته فيما أبدع

إننا نسلم للدكتور بل نرجوه أن يقتنع بأن هذه الفلسفة

متحدرة من ذهنية يونانية تعودت خلق سيئات الآلهة واختراع الأساطير عنهم وتحليل إرادتهم وغضبهم وغشهم وجنونهم وسكرهم

٧ — يقول المناظر فى ردّه على الأستاذ توفيق الحكيم إن علينا أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ثم يقف فلا يورد الشق الثانى من هذه الآية العربية وهو « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» غير أنه علىّ أن ألفت مناظري إلى أن الملحد لا يمكنه دون أن ينقض مبدأه أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً لأنه يعلم أنه صائر إلى العدم وأن أبناءه مولودون لدود القبور فهو مطالب بالتنعم فى يومه ما استطاع . إن من لا أبدية له لا غد له ...

٨ — إن المناظر يجد قصوراً فى عدم مجاراة العرب لليونان فى آدابهم التى جالت على قوله فى رحاب الموضوعية خارجة من رحاب الذات ، ويذهب بهذا إلى القول بأن التحليل ليس من مكنة الذهنية العربية

لا يامناظرى، إن الأديب العربى قد استوعب فى ذهنيته كل ما جال فى خاطره وفى الآفاق حوله ، فما كان عليه أن يصوّر حياة اليونان أو يتذوق أساطيرهم وخرافاتهم فيحذو حذوهم ، لأن فطرته لم تكن تستنيم لثقافة غريبة عنه . وهل لنا أن نلوم الألماني مثلاً لأنه لا يأتينا بما أتى به موسيه ، أو نلوم هوجو لأنه لم يكتب كنيتشه ؟ ...

إن الآداب صورة لثقافة الشعب وحياته ، وقد أخذ أجدادنا العلوم عن اليونان لأن العلم مشاع كما سلمت. فهل كانت حضارتنا الأدبية يونانية لتكون آدابنا يونانية ؟

٩ — إن المناظر يرى فى انتصار شارل مارتل إنقاذاً للعقلية الغربية من طغيان روح النسك الآسيوية . وهو يعترف فى الوقت نفسه بأن العقلية الغربية كانت رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام فى روما رقيباً على النفوس والعقول محملا بكل سيئات النسك الآسيوية

أفليس من الغريب أن يرى الدكتور أدم في انتصار مارتل إنقاذاً للغرب من روح النسك الآسيوية فى حين أن الاسلام لم يكن فيه شىء من هذه الروح التى سادت بها روما باسم المسيحية؟ فاذا كان مارتل أراد إنقاذ الغرب من النسك ، أفما كان عليه أن يتحول من نهر اللوار إلى روما بخيله ورجله ؟

* * *

بقى على أن ألقى نظرتى الأخيرة على أول كلمة توّج بها مناظرى ردّه . وهى كلمة « هابل آدم » التى أوردها آية يدعونا بها إلى الأخذ بعقلية الغرب لنصلح حياتنا حتى إذا انتقلنا إلى الحياة الأخرى فهنالك نتبع العقلية الشرقية الملائمة للحياة الباقية « كذا ... »

مرحى لهابل آدم ... أفيلسوف اجتماعى من يقول بمثل هذا ؟ ليذهب أشباه «هابل» فى هذه الحياة بعقليتهم المنكرة لكل عقاب وثواب . ليسحق الأقوياء الضعفاء سحقاً سواء أكانوا أفراداً أم شعوباً، وليدوسوا على الحق بالقوة الغاشمة وبالقوة المتحيلة، حتى إذا اجتاز الكافرون معبر الموت حقّ لهم أن يعملوا بذهنية الشرق وأن يقفوا أمام الديان هاتفين: ربنا إننا نتوب إليك فاحشرنا مع المؤمنين الصالحين .

(البقية فى العدد القادم) نقيكس فارس

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الأديب

ابى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

وهو مضبوط بالشكل الكامل ويقع فى قرابة ٥٠٠ صفحة

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة